الفصل الثاني

الحداثة والموقف من الغرب

د. سامية عبد الرحمن(*)

لم تزل قضية التقدم والتحديث قضية العرب الأولى، وستبقى كذلك ما بقي الإنسان. وقد أصبحت هذه القضية كلمة السر في العالم العربي باعتبارها كفيلة بإخراج المنطقة العربية من حالة الركود التي تمر بها منذ فترة. . .

"الحداثة"، أو التحديث، هي المشاركة والمساهمة في التطور والتحول الكبير الذي تشهده الإنسانية اليوم. فالحداثة حقيقة واقعة، وضرورة في حياة الإنسان، وهي ليست نقطة بداية ثابتة أو محطة وصول، بل انطلاق دائم وضرورة متصلة، وظاهرة ثقافية تتسم بالنسبية والتعددية واللامركزية.

"الحداثة ليست أيديولوجيا نعتنقها أو نرفضها، بل هي حركة تنمو بحسب نضج الحاجة إليها. . . إنها قبل كل شيء مناخ ورؤية للعالم والإنسان، إضافة إلى أنها خروج عن المألوف والتلقيدي، وهي في الوقت نفسه تعبير عن احتجاج كبير، وإعلان بأن الماضي قد انفك عنا[1].

والتساؤل الآن: هل يمكن صياغة رؤية عربية، ومشروع تحديثي نهضوي عربي دون فقدان للهوية القومية؟؟ . . . . وهل يمكن نجاح هذا المشروع دون النهوض بالإنسان باعتباره الأداة الفعالة التي لا يتحقق التحديث إلا بها ومن خلالها؟ . . . . هل يمكن الاقتباس من الغرب ومواجهته في آن واحد؟؟ . . . . هل يمكن إفراغ المشروع التحديثي من أبعاده السياسية، والاجتماعية، والأخلاقية؟ . . . . هل يمكن التحديث في ظل القمع والإرهاب والاستبداد السياسي، والانحراف والفساد الأخلاقي؟؟

(*) أستاذ الفلسفة. كلية البنات. عين شمس.

(1) Richard Gott: The Crisis of Contemporary Culture. The Guardian. December, 1986. p.18.

ماذا نريد تحديثه، ومن أين نبدأ . . . . . ؟؟؟؟

هذه التساؤلات حول "الحداثة" و "الموقف من الغرب" نحاول أن نوجز الإجابة عنها في محورين أساسيين :

المحور الأول: في ماهيـــة الحداثة باعتبارها تصوراً غربيًا وما يقابلها في فكرنا العربي .

المحور الثاني: في الآليات التي يمكن من خلالها تجسيد الحداثة العربيـــة الإيجابيـــة .

ماهية الحداثة:

تتصل نشأة الحداثة بالتحولات الضخمة التي أحدثتها النهضة الأوروبية بدايـــة من القرن الخامس عشر الميلادي، وما واكبها من حركات وثورات انتشرت منها إلى القارات الأخرى[1] .

لقد سادت الحداثة النصف الأول من القرن العشرين، فهي توصيف لمرحلة تاريخية في الحضارة الغربيـــة، وهي ليست مذهبًا فنيًا أو أفقًا معياريًا، وإنما هي حركة سياسيـــة واجتماعيـــة وفلسفية حرصت على ألا تجعل من الماضي معياراً للحكم على الأشياء، لأن الماضي لا يستوعب تقنيات الحياة المعاصرة .

ويرى "فرانك كيرمود" أن كلمة حديث **Modern** مصطلح له وزن يفوق ما لكلمة جديد **New** أو معاصر **Contemporary** . وعلى ذلك يتصل مفهوم الحداثة بدلالات، ومقومات التحديث، والتطور، والتنوير، والمعاصرة، والتجديد .

ويرى "أدونيس" أن أزمة الحداثة العربية ـ بشكل خاص ـ في أننا اليوم نمارس الحداثة الغربية ـ على مستوى تحسين الحياة اليوميـــة، ووسائل هذا التحسين، أي أننا نأخذ المنجزات ونرفض المبادئ العقلية التي أدت إلى ابتكارها . إنه التلفيق الذي ينحر الإنســـان العربي من الداخل . . . ويبدو إيذانا بانهيار الشخصية العربية ذاتها .

(١) مجلة شهادات وقضايا . العدد ٣ . ١٩٩١ . صـ٢٤٤ .

ويرى "هابرماس" أن جذور الحداثة تبدأ من القرن الثامن عشر من خلال فلسفة كانط وهيجل، لأنهما حددا الأسس الفلسفية لمشروع الحضارة الغربية في بداية القرن الحالي.

الحداثة ـ كالتنوير ـ وليدة ثورة الغرب على الدين والكنيسة، لذلك فإن نقل "الحداثة" الغربية ـ كما هي ـ إلى المجتمعات العربية غير جائز، لأن الحداثة وفقاً للنموذج الغربي لا محل لها في المجتمعات العربية، وإن كانت معاني "التحديث"، و"التطور"، و"التقدم" حاضرة على الدوام على الساحة العربية، لأن التجديد أمر مستمر مدى العصور وليس له مدى زمني يتوقف عنده، ولكنه هنا مرتبط بضوابط وموازين معينة تتوافق مع جوهر القيم والثقافة العربية.

ويمكن فهمنا للحداثة بوصفها منظومة مختلفة المجالات، متعددة الوظائف، تنطوي على وحدتها الخاصة ووظائفها المتجاوبة بوصفها منظومة. لذلك تظل قرينة البحث الذي لا يتوقف لتعرف أسرار الكون والسيطرة عليه فكريًا وعلميًا، وقرينة الارتقاء الدائم بالإنسان في واقعه، من المنظور السياسي والاجتماعي، الذي يقرن العلم والنظر بالعمل، العدل والمساواة بالحرية... الحرية بحق العقل البشري في التمرد الدائم على أدوات انتاج المعرفة وعلاقاتها الموروثة أو المنقولة عن "الغير" دون دليل.

هذا الفهم "للحداثة" ـ المناقضة للتقليد ـ ليس ترجمة أو تلخيصًا للحداثة الأوروبية الغربية، وإنما هو محاولة لصياغة مفاهيم وظيفية ترتبط بأوضاع الثقافة العربية المعاصرة، التي تكافح التبعية بمعانيها السياسية والاقتصادية والفكرية، وتسعى إلى الاستقلال الذي يحقق حضوره الفاعل والمتميز على كل المستويات[1].

لكن هذا لا يمنع من الإفادة من كل الخبرات الإنسانية المتاحة ـ قديماً وحديثاً ـ ونحن نتصور أنه حان الوقت لأن تفيد الثقافة العربية المعاصرة من تجارب غيرها من الثقافات. وفي النموذج الياباني، والصيني وغيره من النماذج التي نراها واعدة في العقد الأخير ما يستحق منا الإفادة.

(١) د. رمضان بسطاويسي: الإبداع والحرية. الهيئة العامة للثقافة. ٢٠٠٢. صـ ١٩٥.

وصدق غاندي حين قال: "أنا لا أريد لوطني أن يبني الأسوار حوله في كل الاتجاهات، أو يغلق النوافذ بينه وبين الآخرين، وإنما أريد أن تهب ثقافات كل بلدان العالم على منزلي حرة قدر الإمكان، بشرط ألا يقلقل أحد موضع قدمي". وتلك عبارة عميقة المعنى، تؤكد أن الانفتاح على الآخر، والتحاور معه لا يتعارض مع الهوية القومية، وأن قبول ثقافة الآخر لا يعني التنازل عن مقومات الثقافة العربية[1].

إن التاريخ العربي هو كالنهر ـ دفاق المياه. وتظل للنهر هويته منذ آلاف السنين برغم جريان مائه وتبدله، يوماً بعد يوم، بل لحظة في إثر لحظة... والذي يحفظ للنهر هويته هو التزامه مجرى واحداً.

آليات الحداثة العربية:

يسعى الإنسان إلى التحديث لما ينطوي عليه من تقدم وتطور. ويمكن القول إن مسيرة التحديث التي يشهدها عالمنا العربي اليوم تتشابك إلى حد كبير مع مسيرة العلم والتكنولوجيا. وفي حديثنا عن "التجديد" أو"التحديث" نقول إن الحداثة تفيد من هذا التطور العلمي وتعتمد عليه بوصفه الوجه الخارجي المادي لها، بينما الإنسان بعقله وسلوكه وقيمه الإنسانية يعد الوجه الداخلي للحداثة. فالحداثة لا تقوم بذاتها، إنها بحاجة إلى ذلك الإطار أو النسق الاجتماعي الذي يشمل الوجهين معاً: المادي والمعنوي، العلمي والقيمي. هي بحاجة دائمًا إلى الإنسان المجدد أو الفاعل الذي تقيم معه تلك العلاقة الجدلية الضرورية التي تغذي الطرفين.

* الإيمان بالإنسان باعتباره أهم كائنات العالم الطبيعي، فهو الغاية والوسيلة معًا. الغاية في قدرته على التحرر من العوامل والعلل الداخلية وصولاً إلى جوهر التحضر. كما يكون الإنسان نفسه هو العامل الفاعل في التطور.

* التأكيد على قيمة العقل الإنساني، ومنحه الأولوية في إدراك الوجود وإبداع العالم[2].

---

(١) بيتر بروكر: الحداثة وما بعد الحداثة: ترجمة د. عبد الوهاب علوب. مراجعة د. جابر عصفور. منشورات المجمع الثقافي. الإمارات العربية المتحدة. ١٩٩٥ صـ ٩.

(٢) محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية. دار الثقافة. القاهرة. ط١ ١٩٨٥.، أدونيس (علي أحمد سعيد): الثابت والمتحول. بحث في الاتباع والإبداع عند العرب ج٣. صدمة الحداثة. دار العودة. بيروت ط ٤ ١٩٨٣. صـ٢٦٨.

فالقاسم المشترك لكل نموذج حضاري، وقياس درجة التحديث والتقدم، هو الاحتكام لمنطق العقل، والنظر إليه بوصفه النور الذي نهتدي به، ونصوغ به عالمًا متحررًا من أشكال الوصاية التي تحجر عليه أو تعوق انطلاقه.

هذه الحركة العقلانية التي حدثت في مطلع النهضة العربية لم تكن استعارة سلبية لنموذج مغاير في تربة مختلفة، وإنما هي محصلة تفاعل نابع من التساؤلات التي طرحها الواقع المتغير على الحاضر- الحاضر في تطلعه إلى الغد المتقدم.

والإيمان بالعقل يعني الإيمان بالإنسان وقدرته الخلاقة على صياغة المستقبل- في مقابل التقليد الذي يرسخ مفاهيم الاتباع والتبعية[1].

يعد الأخذ بمبدأ الحرية والديمقراطية ملازمًا للحداثة والتقدم، في حين أن الاستبداد والطغيان ملازمان للتخلف. وقد أثبتت التجارب - عبر عصور مختلفة- أنه لا تقدم أو نهوض أو تحديث إلا مع الحرية، حيث لا أمل في الخروج من التخلف، وإنجاز تقد حقيقي دون إصلاح ديمقراطي جذري. والإنسان الآخذ بالحداثة - أو بشيء منها على الأقل - أكثر استعدادًا لقبول الرأي، والرأي الآخر، وتعدد وجهات النظر. إنه لا يغلق نفسه على آرائه، بل يقبل التغيير، يحاور الآخر، يأخذ منه بقدر ما يعطي، ويضيف بقدر ما يرث[2].

هذه الدعوة إلى الإيمان بالعقل واضحة في التراث الثقافي العربي عمومًا، وفي الدين الإسلامي، وليست حكرًا على النموذج الغربي. ونحن نعلم أن الإسلام هو دين العلم والمعرفة والاعتزاز بالعقل، دين الحضارة والمدنية، لا يعاديها أو يجافيها، بل يساندها ويساعدها[3].

---

(١) جابر عصفور: أنوار العقل. الهيئة العامة المصرية للكتاب. التقاليد والحداثة صـ ١٧٣، ١٢٣، ٩٥.

(٢) زكي نجيب محمود: ثقافتنا في مواجهة العصر. دار الشروق. ط١ ١٩٧٦. الحضارة وقضية التقدم والتخلف صـ١٩٢: ٢٠٨.

(٣) سامية عبد الرحمن: التفكير العلمي من النقد إلى الإبداع. بحث منشور (ضمن مؤتمر التفكير العلمي، وتكامل المعرفة) أبريل ٢٠٠٤.

المعتزلة، الطهطاوي، الأفغاني، محمد عبده . . . إلى طه حسين . . . نماذج واضحة للدعوة إلى استخدام العقل والحرية ورفض التبعية .

كسوف الشمس الذي شاهدناه بالأمس القريب، استمر لنحو أربع دقائق فقط، لكن كسوف الديمقراطية وتراجع الحريات مستمر منذ أزمان . وهذا يؤدي إلى تكاثر الكوارث، وعموم الفساد، وسيطرة الاستبداد .

من آليات الحداثة وعي الإنسان والمجتمع بحقيقة الزمان . فالإنسان الذي يتطلع إلى الحاضر والمستقبل أكثر من الماضي، فإنه في طريق الحداثة، أما إذا كان الماضي يهيمن على فكر الفرد وسلوكه، بحيث يصبح أسيراً له، فإننا هنا أمام ظاهرة تقليد لا حداثة .

وتعني هذه النظرة إلى الزمان عدم التمسك بالماضي بوصفه نموذج الكمال، وهنا لابد أن نزيل عنه كل ما نتوهمه له من عظمة وكمال وقداسة . فمهما تكن وسائل الماضي الثقافية والحضارية ملائمة لظروف عصرها، فهي بالضرورة تفقد هذه الصلاحية في ظروف عصرنا . ولا يعني هذا تبرأً من الماضي كله، كلا، فبغير الماضي لا يكون للحاضر هويته، وإنما يعني تطويراً وتحديثًا له ليكون حاضر الإنسان امتدادًا لا يكرر ذلك الماضي، وإنما ينبثق منه كائنًا جديدًا .

بداية رحلتنا مع التحديث، والنظر إلى المستقبل، هي وعى التاريخ الذي يعلمنا أن الأمم لا تقف عند حد، وإنها عرضة للتغير والتحول . الإيمان بالتقدم ـ قولاً وفكراً وعملاً ـ هو ما يميز الإنسان المجدد، والمعيار هنا هو المستقبل وليس الماضي[1] .

يترتب على هذه النظرة إلى الزمان – التي نعتبرها من آليات الحداثة ومعالمها ـ الأخذ بالتخطيط كوسيلة ضرورية لتحقيق مشاريع مستقبلية ضمن فترة زمنية محددة . لابد من اعتماد التخطيط والتنظيم كنهج حياة وأسلوب عمل مدروس إذا أردنا التجديد والتحديث . ويستتبع هذا اهتمام الإنسان بالإتقان ودقة التنفيذ لما يقوم به من عمل .

(١) رايموند ويليامز : طرائق الحداثة ضد المتوائمين الجدد . ترجمة . فاروق عبد القادر . عالم المعرفة . متى كانت الحداثة . صـ٥١ : ٥٧ .

التمسك بالثوابت القيمية والدينية، الضابطة للسلوك، الموجهة لمجرى الحياة. ولابد هنا أن نجعل من هذه القيم معايير حية نابضة نترسمها ونهتدي بها، لا مجرد ألفاظ نرددها، بحيث يتطابق القول مع الفعل والسلوك. فالتحديث لا يتحقق في ظل القمع والاستبداد السياسي، ولا يستمر مع غياب الشفافية، الوساطة، المحسوبية والرشوة... باختصار لا يثمر جهد التحديث مع الفساد والانحراف الأخلاقي. الفساد هو الأب الشرعي للتخلف والفقر والإحباط، والظلم، وغياب الانتماء، وافتقاد القدوة.

وختاماً نقول إننا إذا أردنا التحديث حقاً، علينا إعمال العقل في كل ما يخصنا وما يحيط بنا، وما يتعلق بحياتنا من ناحية، ومكافحة الاستبداد السياسي، والفساد الأخلاقي من ناحية أخرى، وذلك بالصدق مع النفس والغير، والالتزام باتساق الظاهر مع الباطن.

وهنا نعود لنؤكد أن "التحديث" يمكن أن يتحقق عن طريق التوازن بين الجانب المادي المتمثل في العلم وإعمال العقل، الجانب القيمي المتمثل في منظومة القيم التي لابد من غرسها في نفوس النشء. ولابد أيضاً من تطبيق معايير الشفافية والوضوح في كل الأمور قولاً وفعلاً، مع حسن اختيار القيادات في إطار معايير تضع في حسابها الوحيد معيار الكفاءة والجودة[1].

(١) أوليفر ليمان: مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين. ترجمة. مصطفى محمود محمد. مراجعة. د. رمضان بسطاويسي. عالم المعرفة. ٣٠١.